غداً تنتهي الحرب[1]

ميخائيل نعيمه

غداً تَنْتَهِي الحَرْبُ ، فَلَا مِدْفَعَ يَقْذِفُ الحُتُوفَ، وَلَا دَبَّابَةَ تَنْشُرُ البَوَارَ، وَلَا طَيَّارَةَ تُمْطِرُ الفَنَاءَ، وَلَا غَوَّاصَةَ تَزْرَعُ الأَعْمَاقَ رُكَاماً وَعِظَاماً.

وَتَنْكَمِشُ الأَرْضُ هُنَيْهَةً عَلَى ذَاتِهَا، فَتُنَادِيهَا الشَّمْسُ مِنْ فَوق: "السَّلَامُ يَا بُنَيَّتِي . مَاذَا عِنْدَكِ اليَوْمَ؟"

فَتُجِيبُهَا الأَرْضُ : "كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا السَّلَامَ يَا أُمَّاهُ." وَتَمْضِي تَنْهَبُ الأَبْعَادَ وَتَلُفُّ الأَزْمَانَ وَكَأَنَّ شَيْئاً مِمَّا كَانَ لَمْ يَكُنْ. فَلَا مَعَالِمَ امَّحَتْ آثَارُهَا، وَلَا مُدُنَ دُكَّتْ إِلَى الحَضِيضِ، وَلَا مَمَالِكَ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهَا، وَلَا عُرُوشَ ثُلَّتْ، وَتِيجَانٌ تَدَحْرَجَتْ عَنْ رُؤُوسٍ، وَرُؤُوسٌ تَطَايَرَتْ عَنْ أَجْسَادٍ، وَأَجْسَادٌ تَفَسَّخَتْ أَعْضَاؤُهَا فَتَنَاوَشَتْهَا الكَوَاسِرُ وَالضَّوَارِي، وَتَقَاسَمَتْهَا الأَوْحَالُ وَالأَدْغَالُ، وَالفَلَوَاتُ وَالمُسْتَنْقَعَاتُ.

وَكَأَنَّ دَمْعاً فَاضَ مِنْ مَآقِي البَشَرِيَّةِ مَا كَانَ غَيْرَ نَدًى يَسِيرٍ بَلَّلَتْ بِهِ الأَرْضُ بَعْضَ أَعْشَابِهَا، وَكَأَنَّ دَماً تَفَجَّرَ مِنْ أَوْرِدَةِ الإِنْسَانِيَّةِ مَا كَانَ غَيْرَ حُمْرَةٍ لَوَّنَتْ بِهَا الأَرْضُ بَعْضَ أَزْهَارِهَا، وَكَأَنَّ لُحُوماً تَمَزَّقَتْ وَعِظَاماً تَفَتَّتَتْ مِنْ لُحُومِ بَنِي آدَمَ، وَعِظَامُهُمْ مَا كَانَتْ غَيْرَ قِرًى لِبَعْضِ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَطَيْرِهَا، وَسَمَادٍ لِبَعْضِ نَبَاتِهَا، وَكَأَنَّ عَوِيلَ الثَّكْلَى ، وَنُوَاحَ الأَرَامِلِ وَاليَتَامَى، وَزَفَرَاتِ الجَرْحَى، وَأَنَّاتِ المُحْتَضَرِينَ، لَمْ تَكُنْ غَيْرَ حِدَاءٍ تَحْدُو بِهِ الأَرْضُ قَوَافِلَ أَبْنَائِهَا الرَّاحِلِينَ ، وَكَأَنَّ زَمْجَرَةَ القُوَّادِ، وَعَرْبَدَةَ السِّيَاسِيِينَ، وَشِقْشِقَةَ الفُضُولِيِّينَ، وَثَرْثَرَةَ العُمْيَانِ المُتَهَوِّسِينَ، وَأَهَازِيجَ المَنْصُورِينَ، وَغَمْغَمَاتِ المَكْسُورِينَ لَمْ تَكُنْ سِوَى أَنْفَاسِ مَكْرُوبٍ، أَوْ هَذَيَانِ مَحْمُومٍ.

[1] حديث إذاعي ألقاه ميخائيل نعيمة عبر الإذاعة اللبنانية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، وأورده في كتاب "البيادر".

غَدًا يَنْفَخِتُ الطَّبْلُ، وَيُبَحُّ المِزْمَارُ، فَتَنْفَرِطُ عُقُودُ المَلَايِينِ مِنَ المُغَنِينَ وَالرَّاقِصِينَ وَالمُمَثِّلِينَ، وَيَنْسَدِلُ السِّتَارُ عَلَى أَكْبَرِ وَأَرْوَعِ مِهْرَجَانٍ أَقَامَهُ الجَهْلُ وَالبَغْضَاءُ – ذَانِكَ الزَّوْجَانِ الوَفِيَّانِ اللَّذَانِ مَا بَرِحَا مِنَ البِدْءِ يَنْفَحَانِ النَّاسَ بِالوَلَائِمِ السَّخِيَّةِ وَالمِهْرَجَانَاتِ المُنْقَطِعَةِ المِثَالِ-. وَيَنْسَدِلُ السِّتَارُ، وَيَنْتَثِرُ شَمْلُ النَّظَّارَةِ وَالمُمَثِّلِينَ، وَيَعُودُ الزَّوْجَانِ إِلَى خُلْوَةِ مَخْدَعِهِمَا لِيَنْسِلَا حُرُوباً جَدِيدَةً وَوَيْلَاتٍ جَدِيدَةً.

وَتُطِلُّ الشَّمْسُ مِنْ عُلَاهَا فَتَقُولُ لِلأَرْضِ: "السَّلَامُ يَا بِنْتَاهُ . مَاذَا عِنْدَكِ اليَوْمَ؟"

فَتُجِيبُهَا الأَرْضُ: " هُدْنَةٌ وَلَا سَلَامَ يَا أُمَّاهُ"" ، وَتَنْعَكِفُ عَلَى مَا فِي أَحْشَائِهَا مِنْ عَجَائِبِ الأَسْرَارِ والأَخْبَارِ فَتُبْرِزُ لِلنَّاسِ فِتْنَةً تِلْوَ فِتْنَةٍ مِنَ الجَمَالِ، وَآيَةً بَعْدَ آيَةٍ مِنَ السِّحْرِ الحَلَالِ. وَلَكِنَّمَا النَّاسُ لَا يَأْبَهُونَ.

غَداً تَنْتَهِي حُرُوبُ الحَدِيدِ والنَّارِ ، فَيَعُودُ المُحَارِبُونَ إِلَى حُرُوبِهِمْ الَّتِي لَا حَدِيدَ فِيهَا وَلَا نَارَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَخْمَدُ لَهَا أُوَارٌ : حُرُوبِ الآبَاءِ وَالبَنِينَ، والبَنَاتِ والأُمَّهَاتِ، حُرُوبِ المُنْتِجِينَ وَالمُسْتَهْلِكِينَ، وَالبَائِعِينَ وَالمُشْتَرِينَ، وَالمُؤَجِّرِينَ وَالمُسْتَأْجِرِينَ، وَالمُعَلِّمِينَ وَالمُتَعَلِّمِينَ، وَأَصْحَابِ العَمَلِ وَالعَامِلِينَ، وَالجَائِعِينَ وَالمُتْخَمِينَ، والقُضَاةِ والمُتَقَاضِينَ والمُحَامِينَ، حُرُوبِ الحَاكِمِ والمَحْكُومِ ، واتلظَّالِمِ والمَظْلُومِ ، والعَلِيلِ والطَّبِيبِ ، والمُؤْمِنِ والمُلْحِدِ، حُرُوبِ المَخَادِعِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَالخَلَوَاتِ الغَرَامِيَّةِ ، وَالمُؤْتَمَرَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، حُرُوبِ الأَذْوَاقِ وَالأَفْكَارِ والتَّقَالِيدِ، حُرُوبِ العُيُونِ والأَلْسِنَةِ وَالأَقْلَامِ، حُرُوبِ حَارِثِ الأَرْضِ مَعَ السَّمَاءِ، وَزَارِعِ الأَمَلِ مَعَ الشَّقَاءِ، وَأَخِي اليَأْسِ مَعَ الرَّجَاءِ.

يَا لَهَا مِنْ حُرُوبٍ لَا يُحْصِيهَا عَدٌّ وَلَا يَحُدُّهَا حَدٌّ، لَا مُهَادَنَةَ فِيهَا وَلَا هَوَادَةَ. تَغْلِي مَرَاجِلُهَا لَيْلَ نَهَارَ غَلَيَانَ الحِمَمِ فِي جَوْفِ بُرْكَانٍ، وَلَكِنَّهَا لَا تُعْتَبَرُ فِي عُرْفِ النَّاسِ حُرُوباً حَتَّى يُسْمَعَ لَهَا دَوِيٌّ وَانْفِجَارٌ، أَمَّا إِذَا تَجَاوَبَتْ بِدَوِيِّهَا الأَجْوَاءُ، وَانْدَلَعَتْ أَمْعَاؤُهَا المُلْتَهِبَةُ عَلَى الأَرْضِ فَالْتَهَمَتْ أَخْضَرَهَا وَيَابِسَهَا ، وَقَوَّضَتْ عُمَّارَهَا، وَطَمَسَتْ آثَارَهَا، وَصَبَغَتْ بِالأُرْجُوَانِ أَدِيمَهَا وَأَنْهَارَهَا، فَهِيَ إِذْ ذَلِكَ الحَرْبُ الضَّرُوسُ ، وَالنَّاسُ إِذْ ذَلِكَ صَوْتٌ وَاحِدٌ: "نَجِّنَا اللَّهُمَّ مِنْ ضَنَكِ الحُرُوبِ وَوَيْلَاتِهَا، وَاجْعَلْ هذِهِ الحَرْبَ خَاتِمَةَ الحُرُوبِ". جَاهِلِينَ أَنَّ هَذِهِ الحَرْبَ بِنْتُ

تِلْكَ الحُرُوبِ ، وَهَذا الانْفِجَارُ وَلِيدُ تِلْكَ النَّارِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ جَعَلُوا مِنْ صُدُورِهِمْ مَوَاقِدَ، وَمِنْ قُلُوبِهِمْ وَقُودَا.

وَتُشْرِقُ الشَّمْسُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الأَرْضِ، فَتُحَيِّيهَا قَائِلَةً: "السَّلَامُ يَا ابْنَتِيَ المُصْطَفَاة. مَاذَا عِنْدَكِ اليَوْمَ؟"

فَتُجِيبُهَا الأَرْضُ: "نَارٌ وَلَا انْفِجَارَ يَا أُمَّاهُ. وَشَوْقٌ إِلَى السَّلَامِ وَلَا سَلَامَ." ، وَتَنْطَلِقُ فِي طَرِيقِهَا فَلَا تُسْرِعُ لَحْظَةً وَلَا تُبْطِئُ لَحْظَةً، وَمِنَ المِصْهَرِ العَجِيبِ الَّذِي هُوَ قَلْبُهَا تَرْتَفِعُ حَرَارَةٌ قُدُسِيَّةٌ إِلَى وَجْهِهَا الأَقْدَسِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يُورِقَ وَيُزْهِرَ وَيُثْمِرَ خَيْرَاتٍ كَثِيرَةً تَفُوقُ حَاجَةَ كُلِّ مَخْلُوقٍ تَوَطَّنَ الأَرْضَ.

غَداً تَعُودُ مَيَادِينُ الحَرْبِ حُقُولاً وَغَابَاتٍ وَمُدُناً آهِلَةً، فَيَمْشِي المِحْرَاثُ فِي أَثَرِ المِدْفَعِ، وَالثَّوْرُ فِي أَثَرِ الدَّبَّابَةِ، وَتَقْتَفِي الفَأْسُ الرَّصَاصَةَ، وَالمِطْرَقَةُ القُنْبُلَةَ، وَتَخْضَرُّ القُبُورُ، وَيَعُودُ النُّورُ مِنْ، مَنْفَاه، وَتَخْرُجُ العَذَارَى مِنْ خُدُورِهِنَّ، وَالعَجَائِزُ مِنْ مَخَابِئِهِنَّ، وَالَّذِينَ فِي الأَرْحَامِ يَبْرُزُونَ إِلَى عَالَمٍ سَمَاؤُهُ هِيَ هِيَ، وَأَرْضُهُ هِيَ هِيَ. وَلَكِنَّ كِبَارَهُمْ سَيُوقِعُونَ فِي خَلَدِهِمْ أَنَّ عَالَمَ الأَمْسِ غَيْرُ عَالَمِ اليَوْمِ، وَلَكِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ سَيُرْضِعْنَهُمْ مَعَ اللَّبَنِ حُبَّ الانْتِقَامِ، وَأَمَّا اليَدُ الَّتِي عَلَى المِحْرَاثِ فَسَتَبْذِرُ مَعَ كُلِّ حَبَّةٍ لَعْنَةً، وَالَّتِي عَلَى الفَأْسِ سَتَقْطَعُ مَعَ كُلِّ عُودٍ يداً، وَالَّتِي عَلَى المِطْرَقَةِ سَتَسْحَقُ بِكُلِّ طَرْقَةٍ جُمْجُمَةً وَلَوْ بِالخَيَالِ، وَالتَّشَفِّي بِالخَيَالِ لَأَفْضَعُ فِي بَعْضِ الظُّرُوفِ مِنَ التَّشَفِّي بِالفِعْلِ.

وَتُنَادِي الشَّمْسُ ابْنَتَهَا البِكْرَ: "السَّلَامُ يَا ابْنَتَاهُ . مَاذَا عِنْدَكِ اليَوْمَ؟".

فَتُجِيبُهَا الأَرْضُ : "عِنْدِي بِذَارٌ جَدِيدٌ لِحُرُوبٍ جَدِيدَةٍ يَا أُمَّاهُ، أَمَّا السَّلَامُ فَمَا أَبْصَرْتُ وَجْهَهُ بَعْدُ." ، وَتُتَابِعُ السَّيْرَ ، وَالأَفْلَاكُ تُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرُدَّ سَلَامَهَا سَلَاماً.

غَداً تَضَعُ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَتُضِيفُ الإِنْسَانِيَّةُ وِزْراً جَدِيداً إِلَى أَوْزَارِهَا القَدِيمَةِ. وَفِي مَكَانٍ مَا مِنْ بِلَادٍ مَا يَجْتَمِعُ جَمْهَرَةٌ مِنْ زُعَمَاءِ أُمَمِ الأَرْضِ –مَنْصُورِهِمْ وَمَكْسُورِهِمْ- وَيَنْكَبُّونَ عَلَى أَكْدَاسٍ مِنَ الأَوْرَاقِ وَالخَرَائِطِ يُفَصِّلُونَ مِنْهَا أَرْضاً جَدِيدَةً لِأُمَمٍ جَدِيدَةٍ، فَتُخُومٌ تَتَدَانَى وَأُخْرَى تَتَبَاعَدُ، وَأُمَمٌ تَنْفَصِلُ عَنْ أُمَمٍ.

وَلِلسِّعَايَاتِ طَنِينٌ وَدَبِيبٌ، وَلِلمَطَامِعِ أَزِيزٌ وَلَهِيبٌ، وَلِلبُغْضِ فَحِيحٌ وَزَئِيرٌ، وَلِلرِّيَاءِ

بَسَمَاتٌ صَفْرَاءُ وَقَهْقَهَاتٌ بَلْهَاءُ. أَمَّا المَحَبَّةُ فَلَا رَسْمَ لَهَا وَلَا صَوْت، وَالتَّلَفُّظُ بِاسْمِهَا سَخَافَةٌ وَشَنَارٌ. وَأَمَّا الحَقُّ فَمِمْسَحَةٌ لِأَرْجُلِ الدَاخِلِينَ وَالخَارِجِينَ. وَأَمَّا المَغْفِرَةُ فَبَغِيٌّ مَذْبُوحَةٌ مِنَ الوَرِيدِ إِلَى الوَرِيدِ، وَمَنْسِيَّةٌ فِي جَبَّانَةِ الغُرَبَاءِ وَالأَشْقِيَاءِ وَالمَنْبُوذِينَ. وَأَمَّا الأُخُوَّةُ فَسِلْسِلَةٌ مُفَكَّكَةُ الحَلَقَاتِ يَتَلَهَّى بِهَا القَائِمُونَ عَلَى حِرَاسَةِ الأَبْوَابِ.

وَيَبْقَى مُهَنْدِسُو العَالَمِ الجَدِيدِ وَأَعْوَانُهُمْ أَيَّاماً طِوَالاً يَجْمَعُونَ ثُمَّ يُفَرِّقُون، وَيَرْسِمُونَ ثُمَّ يَمْحُون. وَعِيَالُ اللهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أُذُنٌ وَاحِدَةٌ تَلْتَقِطُ بِشَوْقٍ مَا بَعْدَهُ شَوْقٌ كُلَّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ تَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا مِنْ أَفْوَاهِ أُولَئِكَ المُهَنْدِسِينَ وَأَبْوَاقِهِم. وَالعَالَمُ قَلْبٌ وَاحِدٌ تَكَادُ تَنْقَطِعُ نَبَضَاتُهُ فِي انْتِظَارِ النَّبْضَةِ الرَّهِيبَةِ الَّتِي سَتَنْطَلِقُ فِي النِّهَايَةِ مِنْ دَارِ القَضَاءِ الرَّهِيبِ، وَجَحَافِلُ الأَرْوَاحِ الَّتِي زَهَقَتْ رُوحُ وَاحِدٌ يُرَفْرِفُ بِمَلَايِينِ الأَجْنِحَةِ فَوْقَ تِلْكَ الدَّارِ لَعَلَّهُ يُوحِي إِلَى الَّذِينَ فِيهَا بَعْضَ مَا اسْتَوْحَاهُ مِنْ حِكْمَةِ المَوْتِ. لَكِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ خَفْقَ أَجْنِحَةِ المَوْتِ وَلَا تَمْتَمَةِ شِفَاهِ الحِكْمَةِ.

وَأَخِيراً يَنْتَهِي المُهَنْدِسُونَ مِنْ وَضْعِ تَصَامِيمِهِمْ، فَيَخْتِمُونَهَا بِأَخْتَامِهِمْ وَيُوَقِّعُونَ عَلَيْهَا أَسْمَاءَهُمْ، غَيْرَ عَالِمِينَ أَنَّهُمْ قَدْ أَخْفَوا تَحْتَ كُلِّ خَتْمٍ وَفِي كُلِّ تَوْقِيعٍ مَدَافِعَ وَدَبَّابَاتٍ وَطَيَّارَاتٍ سَتَبْدَأُ مُنْذُ السَّاعَةِ بِتَقْوِيضِ العَالَمِ الَّذِي هَنْدَسُوهُ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ. وَيُهَنِّئُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قَائِلِينَ: "لَقَدِ انْتَهَتِ الحَرْبُ . وَسَنَعِيشُ بَعْدَ اليَوْمِ فِي سَلَامٍ".

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ تُنَادِي الشَّمْسُ ابْنَتَهَا الحَبِيبَةَ فَتَقُولُ: "السَّلَامُ يَا ابْنَتِيَ الحَبِيبَةَ، مَاذَا عِنْدَكِ اليَوْمَ؟".

فَتُجِيبُهَا الأَرْضُ : "عِنْدِي مُعَاهَدَاتُ سِلْمٍ وَلَا سِلْمَ يَا أُمَّاهُ".

وَيُسَجِّلُ النَّاسُ فِي تَارِيخِهِمْ نِهَايَةَ حَرْبٍ مِنْ حُرُوبِهِمْ. وَتَمْضِي الأَرْضُ فِي سَبِيلِهَا هَازِئَةً بِمَا هَنْدَسَ المُهَنْدِسُونَ وَأَرَّخَ المُؤَرِّخُونَ، حَامِلَةً فِي أَحْشَائِهَا أَجِنَّةَ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ، وَفِي دِيَامِيسِهَا لُحُودُ مُؤَرِّخِينَ وَمُهَنْدِسِينَ بِغَيْرِ عَدٍّ، وَفِي مَسَامِعِهَا عَوِيلُ أَجْيَالٍ مَا وُلِدَتْ بَعْدُ، وَفِي حَبَّةِ قَلْبِهَا إِيمَانُ البُسَطَاءِ مِثْلِي بِمَحَبَّةٍ أَقْوَى مِنْ أَنْ تُحَارِبَ أَوْ تُحَارَبَ، وَحَقٍّ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُسْلَبَ أَوْ يُنَالَ بِحَدِّ السَّيْفِ.

****